Adab Al-Rafidain

https://radab.mosuljournals.com

The Relationship Between The Scientists And The Princes Of The Almoravids State

Salih Ahmad Salih Al-Jubory

Department of History/College of Arts/University of Mosul

Article information

Article history:
Received January 8, 2023
Reviewer February 3.2023
Accepted February 11, 2022
Available online December1 , 2023

Keywords:
Sanhaja
Ddesert
Ssheikh, Muslims
jurists

Correspondence:
Salih Ahmad Salih Al-Jubory
saleh.a.s@uomosul.edu.iq

Abstract

The state of the Almoravids is one of the Islamic countries that were established on a religious and scientific basis. Since the departure of Prince Yahiya bin Ibrahim Al-Jedali to perform the Hajj and his meeting on his way back with the jurist Abu Imran Al-Fasi, Sheikh of the Maliki's in the city of Kairouan, Prince Yahiya admired the jurist Abu Imran and asked him directly to send with him One of his students asked him to teach the people of the desert the laws of the Islamic religion and show them what is permissible and what is forbidden. Finally, the choice fell on the young jurist Abdullah bin Yassin al-Jazouli, who did the task best and endured many hardships and difficulties for the sake of the objective for which he came. A strong unified state in the far west of the Islamic world, and he continued to carry out his message until his martyrdom in one of the battles with those who left the religion.

After that, the Maliki jurists inherited the religious and spiritual authority, which was a source of strength and support for the rulers of the Almoravids state, so that any prince among them would not cut off an order without consulting the jurists and obtaining their approval, and the situation continued in this form of friendliness and agreement between the prince and his entourage of jurists until the end of the state era.

DOI: 10.33899/radab.2023.180992, ©Authors, 2023, College of Arts, University of Mosul.
This is an open access article under the CC BY 4.0 license (http://creativecommons.org/licenses/by/4.0/).

العلاقة بين العلماء وأمراء دولة المرابطين

صالح احمد صالح الجبوري*

المستخلص :

* أستاذ مساعد / قسم التاريخ / كلية الاداب / جامعة الموصل

تعد دولة المرابطين (447-541هـ / 1055-1146م) من الدول الإسلامية التي قامت على أساس ديني، منذ خروج الأمير يحيى بن إبراهيم الجدالي، لأداء فريضة الحج ولقائه في طريق عودته بالفقيه أبي عمران الفاسي شيخ المالكية في مدينة القيروان، إذ أُعجب الأمير به وطلب منه أن يرسل معه أحد طلبته؛ ليعلم أبناء الصحراء شرائع الدين الإسلامي، ويبين لهم الحلال والحرام فارسل أبو عمران كتاباً الى تلميذه وجاج بن زلو يطلب منه ارسال احد طلابه لتلك المهمة فتم اختيار الفقيه الشاب عبدالله بن ياسين الجزولي، الذي قام بالمهمة أفضل قيام، وتحمل الكثير من المشاق والصعاب في سبيل الهدف الذي جاء من أجله، وتمكن من جمع كلمتهم، وتوحيد شملهم، وجعل من صنهاجة الصحراء دولة قوية موحدة في أقصى غرب العالم الإسلامي، واستمر في تأدية رسالته حتى استشهاده في إحدى المعارك مع الخارجين عن الدين.

بعد ذلك توارث فقهاء المالكية السلطة الدينية والروحية، والتي كانت مصدر قوة وتأييد لأمراء دولة المرابطين، إذ كان أي أمير منهم لا يقطع أمراً من دون استشارة الفقهاء، وأخذ موافقتهم، واستمرت الحالة على هذا الحال من الود والوفاق بين الأمير وحاشيته من الفقهاء إلى نهاية عهد الدولة.

الكلمات المفتاحية: صنهاجة، الصحراء ، الشيخ، المسلمون ، الفقهاء

المقدمة

يمثل قيام دولة المرابطين حدثاً هاماً في التاريخ الإسلامي، ولاسيما المغرب الأقصى، لما لهذهِ الدولة من تأثير مباشر على مجريات الأحداث وعلى الأصعدة كافة، إذ قامت هذهِ الدولة في منتصف القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي في المغرب الأقصى، وكان عماد هذهِ الدولة قبائل صنهاجة الصحراء كثيرة العدد، والتي كانت تنتشر في المناطق الصحراوية جنوب المغرب الأقصى، ومن أهم قبائلها جدالة ولمتونة ومسوفة ولمطة وجزولة وغيرها.

وبما أن قيام تلك الدولة استند الى دعوة دينية إصلاحية، لذلك نجد أنه من الضروري تسليط الضوء على العلاقة بين العلماء وامراء دولة المرابطين، وكان الهدف من هذه الدعوة الدينية اخراج الناس من ظلمات الجهل والتفرقة والبعد عن الدين إلى نور الهداية والقوة، والتمسك بتعاليم الدين الحنيف، لذلك كان لابد لأمرائها أن يطيعوا فقهاءهم وأن لا يقطعوا أمراً دونهم، وهكذا كان حال أمراء المرابطين من البداية إلى النهاية، فكان لكل منهم مجموعة مستشارين من كبار فقهاء المالكية وكان الأمير يرجع إليهم في كل الأمور صغيرها وكبيرها، وكان هؤلاء الفقهاء هم من يرسمون سياسة الدولة وتوجهاتها.

العلاقة مع العلماء في بداية عهد الدولة

يذكر أن أحد أمراء جدالة وهو يحيى بن إبراهيم الجدالي خرج للحج سنة (427هـ / 1036م) وبعد أداء فريضة الحج عاد إلى بلاد المغرب فمرّ بمدينة القيروان، ونزل في مسجدها وانضم إلى حلقة الفقيه أبي عمران الفاسي[1]شيخ المالكية في ذلك الوقت،[2] فأعجب به كثيراً ثم سأله الفقيه عما لديهم من العلوم فقال: ((مالنا علم من العلوم، ولا مذهب من المذاهب؛ لأننا في الصحراء منقطعون لا يصل إلينا إلا بعض تجار جهّال، صرفهم الاشتغال بالبيع والشراء لا علم عندهم، وفينا أقوام صالحون يحرصون على تعلم القرآن وطلب العلم،

---

[1] أبو عمران الفاسي: هو موسى بن عيسى بن أبي حاج الغفجومي الفاسي، أصله من فاس ونزل القيروان، فأخذ عن أبي الحسن القابسي، ثم رحل إلى قرطبة فقد أعلى أبي محمد الأصيلي، ثم رحل إلى المشرق فزار مضر ومكة وبغداد وأخذ عن علمائها، ثم عاد إلى القيروان فأقرأ بها القرآن مدة ثم درّس الفقه وأسمع الحديث، رحل إليه طلبة العلم من البلاد، توفي بالقيروان سنة (430هـ / 1038م). ينظر: الدباغ، أبو زيد عبد الرحمن ابن محمد الأنصاري: معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تحقيق: عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية ط1 (بيروت، 2005م)، 3 / 162-167.

[2] ابن الاثير، أبو الحسن علي بن محمد: الكامل في التاريخ، تحقيق: أبو الفداء عبدالله القاضي، دار الكتب العلمية، ط4 (بيروت، 2006م) 8 / 328؛ النويري، شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب: نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق، حسين نصار، الهيئة المصرية العامة للكتاب (القاهرة، 1983م)، 24 / 253؛ ابن الخطيب، لسان الدين أبو عبدالله محمد بن عبدالله: أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام وما يتعلق بذلك من الكلام، تحقيق سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، ط1 (بيروت، 2003م)، 2 / 385.

ويرغبون في التفقه في الدين لو وجدوا إلى ذلك سبيلا فعسى يا سيدي أن تنظر لنا من طلبتك من يتوجه معي إلى بلادنا ليعلمنا ديننا))[3]. وعندما عرض الفقيه أبو عمران الأمر على تلاميذه لم يوافق أي واحد؛ لبعد المسافة وخطورة المغامرة[4]، فأرسل أبو عمران كتاباً* مع يحيى بن إبراهيم إلى أحد طلبته وهو فقيه السوس وجاج بن زلو[5] الذي كان يقيم بمدينة نفيس فرحب به وأرسل معه أحد طلبته وهو الفقيه الشاب عبدالله بن ياسين الجزولي[6].

وكان ابن ياسين عالماً ورعاً ديناً شهماً قوي النفس حازماً ذا رأي وصبر وتدبير حسن، فدخل يحيى وابن ياسين إلى الصحراء ((فانتهوا إلى قبيلة لمتونة، وهي على ربوة عالية، فلما رأوها نزل يحيى عن جمله، وأخذ بزمام جمل عبدالله بن ياسين تعظيماً لدين الإسلام، فأقبلت أعيان لمتونة وأكابرهم للقاء يحيى والسلام عليه، فرأوه يقود الجمل فسألوه عنه فقال: هو حامل سنة رسول الله ﷺ، قد جاء يعلم أهل الصحراء ما يلزمهم في دين الإسلام، فرحبوا به وأنزلوه أكرم نُزل))[7].

وهذا يدل على التعظيم الكبير للعلماء من قبل سكان الصحراء، فبالرغم من المكانة العالية التي كان يتمتع بها يحيى بن إبراهيم الجدالي بين قومه بوصفه أميراً عليهم تراه يقود جمل ابن ياسين بنفسه احتراماً لعلمه وترغيباً له ليبقى بينهم معلماً يعلم أبناء الصحراء شريعة الإسلام، وفي سنة (440هـ / 1049م) توفي يحيى بن إبراهيم الجدالي فاختار ابن ياسين مكانه يحيى بن عمر اللمتوني وقد اختصه بشؤون الحرب والسياسة بينما أحتفظ هو بالتوجيه الديني والإشراف على الجباية والزكاة[8].

وهذهِ ميزة أخرى منحها أبناء قبائل صنهاجة إلى الفقيه ابن ياسين وهي تفويضه بتعيين أميراً عليهم من أبناء جلدتهم، دون الاعتراض عليه أو مناقشة قراره، أما بالنسبة لأميرهم الجديد يحيى بن عمر فكان يطيع شيخه ابن ياسين طاعة عمياء فكان ((اذا تقدم بجيشه تقدم أمامه الشيخ عبدالله بن ياسين، والشيخ كان في الحقيقة الأمير، وهو الذي يأمر وينهى وكان يقول لهم: إنما أنا معلم لكم دينكم))[9].

وفي سنة (447هـ / 1055م) قتل الأمير يحيى بن عمر في احدى المعارك مع قبيلة زناتة فقدم ابن ياسين أخاه أبو بكر بن عمر اللمتوني فبايعه المرابطون جميعاً[10].

وقد حظي ابن ياسين بتأييد أبي بكر بن عمر بل زادت مكانته عنده؛ لأن ابن ياسين بالرغم من اتساع جاهه لم يتخط حدوده قط، واستمر يعطي الأمير حقه من الاجلال والتعظيم والطاعة، وإن جنح أحياناً إلى فرض هيبته الدينية عليه بذكاء[11].

---

[3] ابن سماك العاملي، أبو القاسم محمد بن أبي العلاء محمد: الحلل الحوشية في ذكر الأخبار المراكشية تحقيق: عبدالقادر بوباية، دار الكتب العلمية، ط1 (بيروت،2010م)، ص63 – 64؛ وينظر: ابن أبي زرع، علي الفاسي: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، (الرباط، 1972م)، ص122 – 123.

[4] ابن عذاري، أحمد بن محمد المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق: إحسان عباس، ط3 (بيروت، 1983م)، 4 / 7 – 9؛ سالم، السيد عبد العزيز: المغرب الكبير، دار النهضة العربية (بيروت، 1981م)، ص691 – 693؛ مؤنس: معالم، ص 182 – 183.

* وهذا نص الكتاب: ((سلام عليكم ورحمة الله، أما بعد فإذا وصلك حامل كتابي هذا وهو يحيى بن إبراهيم الكدالي فأبعث معه إلى بلاده من طلبتك من تثق بدينه وورعه وكثرة علمه وسياسته؛ ليعلمهم القرآن وشرائع الإسلام ويفقههم في دينهم وله ولك في ذلك الثواب والأجر العظيم، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا، والسلام))؛ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص123.

[5] هو وجاج بن زلو اللمطي من أهل السوس الأقصى، رحل إلى القيروان فأخذ عن أبي عمران الفاسي، ثم عاد إلى بلده فبنى داراً سماها بدار المرابطين لطلبة العلم وقرآء القرآن. ينظر: ابن سماك العاملي: الحلل الموشية، ص64 هامش (8).

[6] ابن الخطيب: أعمال الأعلام 2 / 385؛ ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات (بيروت، 1971م)، 6 / 182؛ بونار، رابح: المغرب العربي تاريخه وثقافته، دار الهدى ط3 (الجزائر، د. ت)، ص162– 163.

[7] النويري: نهاية الأرب، 24 / 254 – 255.

[8] ابن الخطيب: أعمال الأعلام، 2 / 385؛ ابن خلدون: تاريخ، 6 / 183؛ بونار: المغرب، ص163.

[9] ابن سماك: الحلل الموشية، ص66.

[10] ابن عذاري: البيان المغرب، 4 / 13 – 14؛ ابن خلدون: تاريخ، 6 / 183؛ ابن سماك: الحلل الموشية، ص67 – 70.

وكان ابن ياسين حاضراً في المعارك جميعها التي خاضها المرابطون، وفي إحدى المعارك في إقليم تامسنا التقى المرابطون مع قبيلة برغواطة الخارجة عن الدين، وبعد معارك ضارية قتل فيها عدد كبير من الطرفين وأصيب ابن ياسين بجروح بليغة، وبعد أن أحسّ بدنو أجله جمع أشياخ صنهاجة وخاطبهم بالقول: ((يا معشر المرابطين، أنا ميت في يومي هذا وأنتم في بلاد أعدائكم، فإياكم أن تحنثوا وتفشلوا وتذهب ريحكم، كونوا ألفة على الحق إخواناً في الله، وإياكم والمخالفة والتحاسد على الدنيا، وإني ذاهب عنكم فانظروا من ترضونه لأمركم يقود جيوشكم ويغزوا أعداءكم ويقسم فيكم زكاتكم واعشاركم))[12].

وبعد ذلك توفي عبدالله بن ياسين إمام المرابطين وذلك سنة (450هـ / 1058م)[13] وبعد وفاته تولى زعامة المرابطين الروحية فقيه أسمه سليمان بن عدو، لكنه توفي بدوره عام (451هـ / 1059م) ولم يخلفه رئيس آخر وانما توارث سلطته فقهاء المالكية الذي واصلوا تعاليم ابن ياسين، وكانوا يوجهون الامراء ويحركونهم وخاصة في عهد الأمير علي بن يوسف[14].

العلاقة مع العلماء في عهد يوسف بن تاشفين

أبو يعقوب يوسف بن تاشفين بن إبراهيم بن تورقيت اللمتوني الصنهاجي،[15] كان يوسف معتدل القامة أسمر اللون نحيف الجسم جعد الشعر كثير التواضع والقناعة والحياء شديد الذكاء،[16] وكان رجلاً خيراً عادلاً صالحاً شجاعاً مجاهداً، لم يغير حاله من لباس الصوف وأكل الشعير ولحوم الأبل والبانها مع مافتح الله عليه من الدنيا[17].

تزوج يوسف عدداً من النساء أشهرهن زينب بنت إسحاق النفزاوية، وكان قد تزوجها بعد أن طلقها ابن عمه أبو بكر بن عمر قبل رحيله إلى الصحراء للجهاد، وكانت امرأة مشهورة بالجمال حازمة لبيبة ذات عقل رصين ورأي سديد ومعرفة بإدارة الأمور توفيت سنة (464هـ / 1071م)[18]. ثم تزوج من جارية رومية من الأندلس تدعى قمر وهي التي أنجبت الأمير علي ولي العهد،[19] كما تزوج يوسف امرأة تسمى عائشة أنجبت له الأمير محمد الذي نسب إليها فصار يدعى محمد بن عائشة[20].

ورزق يوسف عدداً من الأبناء الذكور والإناث، فمن الذكور علي وتميم وأبو بكر والمعز وإبراهيم ومن البنات كوتة ورقية[21].

تلقى يوسف بن تاشفين تعاليمه الأولى في قلب الصحراء من أفواه المحدثين والفقهاء، وتربى على تعاليم الفقيه عبدالله بن ياسين ونبغ في فنون الحرب وفي السياسة الشرعية التي تتلمذ فيها على يد الفقهاء وقام بها خير قيام[22].

وكان ابن تاشفين ((يفضل الفقهاء ويعظم العلماء ويصرف الأمور اليهم، ويأخذ فيها برأيهم ويقضي على نفسه بفتياهم، وولع بالاختصار في ملبسه ومازال إلى أن لقي الله مجداً في الأمور ملقناً للصواب فيها ... مؤدياً إلى الرعية حقها من الذب عنها والغلظة على عدوها إفاضتهِ للأمن والعدل فيها، ويرى صور الأمور على حقيقتها ...))[23].

---

[11] مؤنس، حسين: معالم تاريخ المغرب والاندلس، مكتبة الاسرة، ط2(القاهرة، 2004م)، ص186.

[12] ابن الخطيب: أعمال الأعلام، 2 / 386؛ وينظر: ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص132.

[13] ابن الأثير: الكامل، 8 / 329؛ النويري: نهاية الأرب، 24 / 259 – 260؛ ابن سماك: الحلل الموشية، ص67 – 70.

[14] سالم: المغرب، ص698؛ بونار: المغرب، ص164.

[15] ابن خلكان، أبو العباس أحمد بن محمد: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: يوسف علي الطويل ومريم قاسم الطويل، دار الكتب العلمية، ط1 (بيروت، 1998م)، 5 / 469؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، 2 / 388؛ ابن سماك: الحلل الموشية، ص 70.

[16] ابن خلكان: وفيات الاعيان 5 / 469؛ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص 136 بونار: المغرب، ص164.

[17] ابن الخطيب: اعمال الاعلام، 2 / 388؛ ابن سماك: الحلل الموشية، ص145.

[18] ابن عذاري: البيان المغرب، 4 / 22؛ نصرالله، سعدون عباس: دولة المرابطين في المغرب والاندلس عهد يوسف بن تاشفين، دار النهضة العربية، ط1(بيروت، 1985م)، ص 37 –38. الصلابي، علي محمد: دولة المرابطين، مكتبة الايمان، ط1 (المنصورة، د.ت)، ص94 – 95.

[19] ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص157؛ نصرالله: دولة المرابطين، ص38؛ الصلابي: دولة المرابطين، ص94 – 95.

[20] نصر الله: دولة المرابطين، ص38. الصلابي: دولة المرابطين، ص95.

[21] ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص138؛ ابن سماك: الحلل الموشية، ص74.

[22] الصلابي: دولة المرابطين، ص94 – 95.

وكان يختار للولايات والإمارات خيرة رجاله من أهل العدالة والدين من رجال القبائل الصنهاجية، ويضم إلى كل والٍ فقيهاً أو أكثر لكي تكون أحكام رجاله كلها متماشية مع الشريعة الإسلامية[24].

وبعد أن توسعت دولة المرابطين في عهد يوسف بن تاشفين فشملت المغرب والأندلس، جمع ابن تاشفين الفقهاء وأحسن إليهم فقالوا له: ((ينبغي أن تكون ولايتك من الخليفة لتجب طاعتك على الكافة، فارسل إلى الخليفة أبو العباس أحمد المستظهر بالله أمير المؤمنين (487 – 512هـ / 1094 – 1118م) رسولاً ومعه هدية كثيرة، وكتب معه كتاباً يذكر ما فتح الله من بلاد الفرنج وما أعتمده من نصرة الإسلام، ويطلب تقليداً بولاية البلاد فكتب له تقليد من ديوان الخلافة بما أراد ولقب أمير المسلمين وسيرت إليه الخلع فسرّ بذلك سروراً كثيراً))[25].

وفي أيام يوسف بن تاشفين انتشرت مظاهر الترف في الأندلس، وقد أبدى ابن تاشفين امتعاضه من هذا الأمر عند زيارته إلى أشبيلية، لكنه لم يلبث أن شجع شعراء الأندلس وأدباءها وأهل العلم فيها إلى الوفود اليه بعد أن أسقط ملوك الطوائف، فاصطنعهم في بلاده وفي ذلك يقول أحد المؤرخين: ((فانقطع إلى أمير المسلمين من الجزيرة من أهل كل علم فحوله حتى أشبهت حضرته حضرة بني العباس في صدر دولتهم، واجتمع له ولابنه من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة مالم يتفق اجتماعه في عصر من الاعصار))[26].

وعلى هذا النحو تغير البلاط البربري الصغير ليوسف بن تاشفين دفعة واحدة، ولاشك أن الأندلسيين وكانت كلمتهم مسموعة من السلطان فيما يشيرون عليه قد ساهموا بقسط كبير في الإصلاحات الإدارية التي نهض بها[27].

ومن هؤلاء أبوبكر بن القصيرة ت(508هـ / 1114م) وكان من أهل البلاغة، والوزير أبو محمد عبدالمجيد بن عبدون ت(527هـ / 1133م) وأبو القاسم بن الجد المعروف بالأحدب ت(515هـ / 1121م)، وأبو بكر محمد بن محمد المعروف بابن القبطرنة وأبو عبدالله بن أبي الخصال ت(540هـ / 1145م) وغيرهم، وعلى هذا النحو تبدل بلاط يوسف بن تاشفين دفعة واحدة من بلاط يتسم بالخشونة والبساطة إلى بلاط متألق متحضر، وأخذ أمراء المرابطين منذ أيام ابن تاشفين يستقدمون من الاندلس الكثير من رجال الفن والبناء ويشركونهم في الأعمال الفنية بالمغرب، وقد ذكر أحد المؤرخين أن علياً بن يوسف عندما عزم على بناء قنطرة على وادي تنسيفت استقدم من الأندلس الخبراء في بناء القناطر[28].

وكان للفقهاء دورٌ كبيرٌ في اقناع يوسف بن تاشفين على ضرورة التخلص من أمراء الطوائف في الأندلس فأفتوا بخلعهم جميعاً وانتزاع الأمر من أيديهم، واظهروا حمية وغيرة على الإسلام لما أصابه من جراء تخاذلهم وسوء تصرفاتهم[29].

وكان يوسف بن تاشفين يعرف العربية دون أن يجيدها، ولكنه اجتهد في اتقانها وشجع العلماء والفقهاء وحثهم على نشر العلوم العربية والإسلامية، وقرب إليه كبار الأدباء والكتاب من أندلسيين ومغاربة وأدخلهم في خدمته، وانتقل نفر من علماء الأندلس وأدبائها إلى المغرب للعمل في الدولة الجديدة، وكان يختار للولايات والإمارات خيرة رجاله من أهل العدالة والدين من رجال القبائل الصنهاجية، ويضم إلى كل والٍ فقيهاً أو أكثر لكي تكون أحكام رجاله متماشية مع الشريعة الإسلامية[30].

---

[23] ابن عذاري: البيان المغرب، 4 / 46؛ وينظر: ابن سماك: الحلل الموشية، ص145.

[24] مؤنس: معالم، ص190، 192.

[25] ابن الأثير: الكامل، 9 / 99؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، 2 / 393؛ نصر الله: دولة المرابطين، ص156 – 157.

[26] سالم: المغرب، ص747 – 748.

[27] سالم: المغرب، ص748.

[28] بروفنسال، ليفي: الاسلام في المغرب، دار نهضة مصر، (القاهرة،1956م)، ص248.

[29] بروفنسال: الإسلام في المغرب، ص249.

[30] مؤنس: معالم ص، 190، 192.

وفي سنة (500هـ / 1106م) توفي أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، ودفن في قصره بمدينة مراكش، وهو أول من تسمى بأمير المسلمين، وكان حسن السيرة خيراً عادلاً، يميل إلى أهل العلم والدين ويكرمهم ويحكمهم في بلاده ويصدر عن آرائهم[31].

العلاقة مع العلماء في عهد علي بن يوسف

وبعد وفاة الأمير يوسف بن تاشفين تولى الأمر ابنه علي بن يوسف ولي العهد، وقام بالأمر أحسن قيام وبايعه الجميع واجتمعت عليه الأمة واتفقت عليه الكلمة[32]، ولد الأمير علي سنة (477هـ / 1084م) وأمه أم ولد رومية اسمها قمر، وكنيته أبو الحسن وكان ((أبيض اللون، مشرب بحمرة تام القد، أسيل الوجه أفلج اقنا خفيف العارضين أكمل العينين سبط الشعر))[33].

له من الأبناء تاشفين الذي تولى بعده وأبو بكر سير وعمر الكبير وتميم وإبراهيم وإسحق وداود وعمر الصغير ومزدلي وينتيان، ومن أشهر وزرائه ينتيان بن عمر ثم إسحاق بن ينتيان[34].

وبعد تولي الأمير علي ((اضطلع بالأمور أحسن اضطلاع وقام أحمد قيام، وكان يقصد مقاصد العز في طرق المعالي ويحب الأشراف ويقلد العلماء ويؤثر الفضلاء، وكان كثير الصدقة عظيم البر جزيل الصلة ... وكان ذكياً فقيهاً، مكرماً لأهل العلم، يقلد الأمور للفقهاء، ولمّا ولي الأمر بعد أبيه خرج ليتفقد أحوال الأندلس، ويسد خللها فاحتل بالجزيرة الخضراء، وبادر إليه وجوه الأندلس ورؤساؤها وقضاتها وفقهاؤها وأدباؤها وشعراؤها، فأجزل لهم العطايا وقضى لكل ذي أرب أربهُ))[35].

وكان للأمير علي بن يوسف اطلاعٌ على الفقه والأدب، واحترامٌ كبيرٌ للفقهاء والعلماء، وأسند الأمر لأهل الدين والفقه، فكان لا يقطع أمراً في جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء[36]، وكان أميراً حسن التكوين والتدريب، ولد في المغرب وتربى في الأندلس وشب أميراً عالماً مجاهداً يتميز بالعدالة وصلابة الخلق ويتمتع بثقافة عالية، وسار في آثار أبيه في كل ميادين العمل وكان أهم ما شغل باله واستنفد جهده الجهاد في الأندلس[37].

وكان الأمير علي يحب العلماء، ويسمع لهم ويأخذ بمشورتهم، وكان يقرب إليه أهل الفقه والدين، ولا يقطع بأمر دون مشاورة الفقهاء، فاصبح للفقهاء في أيامه سطوة وصولة لم يبلغوهما في أي عهد من العهود السابقة[38].

وفي سنة (514هـ / 1120م) دخل مدينة مراكش رجل أدعى بأنه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وهو أبو عبدالله محمد بن تومرت – الذي أسس دولة الموحدين التي قامت على أنقاض دولة المرابطين – فشكى منه بعض الناس ((فرفع أمره إلى أمير المسلمين علي بن يوسف فأحضره وأحضر الفقهاء ليناظروه فأخذ يعظه ويخوفه، فبكى أمير المسلمين وأمر أن يناظره الفقهاء فلم يكن فيهم من يقوم له لقوة أدلته ...))[39].

وقد برز دور الفقهاء بشكل كبير وفي نواحي الحياة كافة وبدأ تأثيرهم واضحاً حتى على أمير المسلمين علي بن يوسف، ويتمثل هذا فيما يسمى بسيادة الفقهاء في دولة المرابطين، فقد كان لهم دائماً مكان ممتاز في هذهِ الدولة، وفي بعض الأحيان أخذ سلطان الفقهاء – وهم دائماً عامل تعريب وثقافة عربية – صورة سياسية، وقد وُجه نقد كثير إلى المرابطين، وخاصة الى الأمير علي بن يوسف بسبب سلطان الفقهاء في الدولة، ولكن هذا الاتهام مفتعل ومبالغ فيه، فلم يكن للفقهاء في دولة المرابطين من السلطان أكثر مما كان لهم في غيرها

---

[31] ابن الأثير: الكامل، 9 / 99؛ ابن خلكان: وفيات الاعيان، 5 / 469؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، 2 / 393؛ ابن سماك: الحلل الموشية، ص146.

[32] ابن الأثير: الكامل، 9 / 99؛ ابن عذاري: البيان المغرب، 4 / 48؛ النويري: نهاية الأرب، 24 / 273.

[33] ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص157.

[34] ابن سماك: الحلل الموشية، ص148.

[35] ابن سماك: الحلل الموشية، ص148 – 149.

[36] بونار: المغرب، ص166.

[37] مؤنس: معالم، ص199.

[38] سالم: المغرب، ص738.

[39] ابن الأثير: الكامل، 9 / 196؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، 2 / 393؛ ابن سماك: الحلل الموشية، ص167–168.

من الدول، ولكن الذي لاشك فيه هو أن أولئك الفقهاء قاموا بعمل تعريبي واسع في أنحاء دولة المرابطين، فساروا خطوة واسعة بما بدأه الادارسة في هذا الاتجاه[40].

ونرى أحياناً أن الفقهاء كانوا عامل ضعف في دولة المرابطين، لأن فقهاء المالكية الذين كانوا يمسكون بزمام الأمور في دولة المرابطين، لم يولوا دراسة الحديث من الاهتمام ما تستحقه، فنراهم ينصرفون عنه ولا يرجعون إلى الأصول لكي يستنبطوا منها الاحكام، ويتخذوها مادة للدراسة وانما اكتفوا بتلك الأحاديث المجموعة في كتب الفروع، وجعلوها مرجعهم الوحيد من غير تحفظ[41].

وكان للفقهاء تأثيرٌ كبيرٌ حتى على القرار السياسي في البلاد، ففي بداية القرن السادس الهجري أثارت قراءة كتاب (إحياء علوم الدين) للإمام الغزالي ت (505هـ / 1111م) في بلاد المغرب موجة من الغضب عند فقهاء المرابطين، لأن قراءة الناس لهذا الكتاب كانت شؤماً على نفوذهم الهائل، إذ كان الغزالي قد فضح فيه نزعات الفقهاء في دراساتهم الفقهية، وحرصهم على الدنيا، وطمعهم في الحصول على المناصب الرفيعة وحسدهم للعلماء الزهاد[42].

ولم يكن العلم في نظره حرفة كالحرف الأخرى أو مهنة دنيوية تعود على صاحبها بالربح العاجل وإنما هو ((عبادة القلب، وصلاة السر، وقربة الباطن إلى الله تعالى))[43] ولذلك اتخذ الفقهاء في المغرب قراراً أملوه على السلطان علي بن يوسف سنة (503هـ / 1109م) يقضي بإحراق كتب الغزالي في أنحاء دولة المرابطين، وبالفعل أحرقت نسخة مجلدة من كتاب الأحياء في الميدان الصغير الذي يمتد أمام الباب الغربي لجامع قرطبة بعد أن سكب عليها الزيت، في جمع حضره الفقهاء وصدر الأمر في جميع انحاء البلاد بإحراق جميع نسخ مؤلفات الغزالي التي يمكن العثور عليها[44].

كانت دولة المرابطين مبنية على أسس شرعية، ولذلك اهتمت بالعلماء والفقهاء الذين لا دوام لدولة تريد أن تحكم بشرع الله بدونهم ولذلك كثر المحدثون والفقهاء فيها، ومن اشهر الفقهاء الذين عملوا في دولة المرابطين القاضي أبو علي الصدفي الحسين ابن محمد بن سكرة، رحل إلى العراق والشام ومصر وسمع على عدد كبير من الشيوخ، ثم رجع إلى بلده واستوطن مرسية سنة (490هـ / 1097م) وجلس للإسماع بجامعها، كان عالماً بالحديث وطرقه عارفاً بعلله ورجاله، بصيراً بالجرح والتعديل حافظاً لمصنفات الحديث، ذاكراً لمتونها واسانيدها، ولي قضاء مرسية ثم استعفي عنه فاعفي، وتصدر في زمن علي بن يوسف في نشر الكتاب والسنة في مرسية وتوافد عليه الطلاب لينهلوا من علمه، إلى أن قتل في وقعة قتندة سنة (514هـ / 1120م)[45].

ومن مشاهير العلماء الذين عملوا في دولة المرابطين شيخ المالكية وقاضي الجماعة بقرطبة أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد، وكان فقيهاً عالماً حافظاً للفقه وعارفاً بالفتوى بصيراً بأقوال أئمة المالكية، من مؤلفاته كتاب ((المقدمات)) و ((البيان والتحصيل لما في المستخرجة من التوجيه والتعليل)) و ((شرح العتبية)) وله أكثر من موقف مع أمير المسلمين، ففي سنة (519هـ / 1125م) خرج من الأندلس متوجهاً إلى بلاد المغرب للقاء أمير المسلمين علي بن يوسف فاستقبله الأمير بالحفاوة والتكريم، وكان سبب الزيارة أن اشتكى القاضي ابن رشد من المعاهدين من النصارى لغدرهم بالمسلمين في الأندلس ومساعدتهم لألفونسو المحارب، فأفتى القاضي بإبعادهم وتغريبهم فصدر الأمر من أمير المسلمين بإخراجهم من الأندلس إلى بلاد المغرب وتحديداً إلى مكناسة وسلا وغيرها من البلاد[46].

وكان مجيء القاضي ابن رشد إلى أمير المسلمين أيضاً لأمر آخر مهم يخص الدولة وهو أنه طلب من أمير المسلمين عزل أخيه أبي الطاهر تميم عن ولاية الأندلس وتقديم غيره[47].

---

[40] مؤنس: معالم، ص215.

[41] سالم: المغرب، ص743.

[42] سالم: المغرب، ص744 – 745؛ بروفنسال: الإسلام في المغرب، ص253 – 254.

[43] الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد الطوسي: إحياء علوم الدين، دار المعرفة (بيروت، د.ت)، 1 / 45.

[44] سالم: المغرب، ص744 – 745؛ بروفنسال: الإسلام في المغرب، ص254.

[45] الصلابي، علي محمد: تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، دار المعرفة، ط٤ (بيروت، ٢٠١١م)، ص214 – 216.

[46] ابن سماك: الحلل الموشية، ص155 – 156؛ الصلابي: تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، ص214 – 215.

[47] ابن سماك: الحلل الموشية، ص164 – 165.

ومن المواقف الأخرى هو عندما استفتى أمير المسلمين علي بن يوسف الفقهاء لبناء سور حول مراكش بعد ظهور المهدي بن تومرت، فأفتى فقهاء الأندلس والمغرب ومنهم قاضي الجماعة بقرطبة أبو الوليد بن رشد أفتوا ببناء السور والتحصين على نفسه وعلى الناس الساكنين معه، وكانت وفاته سنة (520هـ / 1126م)[48].

ومن العلماء البارزين أيضاً الذين خدموا دولة المرابطين القاضي أبو بكر محمد بن عبدالله بن العربي المعافري الأشبيلي ولد سنة (468هـ / 1076م) ودرس ببلده ثم رحل إلى مصر والشام وبغداد ومكة، وبرع في الفقه والأصول والحديث والتفسير وعاد إلى بلده أشبيلية بعلم كثير، تولى القضاء ببلده ثم ترك القضاء وانصرف إلى نشر العلم والتدريس، ومن أشهر مؤلفاته ((العواصم من القواصم)) و ((أحكام القرآن)) و ((المسالك على موطأ مالك)) وغيرها، توفي ببلاد المغرب سنة (543هـ / 1148م) ودفن بمدينة فاس[49].

ومن العلماء المشاهير الذين كان لهم دورٌ في الحياة العامة في دولة المرابطين القاضي أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي، ولد في سبتة سنة (476هـ / 1083م) درس على يد أشهر شيوخ قرطبة، حتى أصبح إمام وقته في الحديث وعلومه والنحو واللغة وأيام العرب، وقد اهتم الأمير علي بن يوسف بالقاضي عياض لما كان شاباً وظهر ذكاؤه وانتشر صيته، فأكرمته دولة المرابطين وهيأت له الأجواء للمزيد من التحصيل والتفقه في الدين، بعدها تولى القضاء في مدينة سبتة ثم نقل إلى قضاء قرطبة، من أشهر مؤلفاته ((مشارق الانوار على صحيح الآثار)) و ((مشارق الانوار)) و ((ترتيب المدارك وتقريب المسالك في معرفة أعلام مذهب الامام مالك)). توفي القاضي عياض بمدينة مراكش سنة (514هـ / 1149م)[50].

ختاماً نقول إن دولة المرابطين قامت على أساس ديني وعلمي؛ لذلك نجد أن أمراءها بالغوا في إكرام العلماء والأخذ بآرائهم في الجوانب العلمية كافة والإدارية وحتى السياسية، وقدم المرابطون للإسلام والمسلمين خدمات جليلة فقد أسهموا بنشر الإسلام واللغة العربية في المغرب الأقصى والسودان الغربي، كما حافظوا على وحدة العدوتين المغرب والاندلس. كما حافظوا على بقاء الإسلام في الاندلس لأكثر من مائة عام، وقد مدحهم القاضي أبو بكر بن العربي بقوله: ((المرابطون قاموا بدعوة الحق ونصرة الدين وهم حماة المسلمين الذابون عنهم، والمجاهدون دونهم، ولو لم يكن للمرابطين فضيلة ولا تقدم ولا وسيلة إلا واقعة الزلاقة، التي أنسى ذكرها حروب الأوائل وحرب داحس والغبراء مع بني وائل، لكان ذلك من أعظم فخرهم وأربح متجرهم))[51].

References :

1. Al-Dabbagh, Abu Zaid Abdul Rahman Bin Muhammad Al-Ansari: The signs of Eman in the knowledge of the people of Kairouan, investigation: Abdul Majid Khayali, house of scientific books, Vol.1 (Beirut, 2005).
2. Ibn al-Athir, Abu al-Hassan Ali ibn Muhammad: AL-Kamil in History, investigation: Abu al-Fida Abdullah Al-Qadi, house of scientific books, Vol. 4 (Beirut, 2006).
3. Al-nowairi, Shihab al-Din Ahmed bin Abdul Wahab: The end of erab in the arts of literature, an investigation, Hussein Nassar, the Egyptian General Authority for writers (Cairo, 1983).
4. Ibn al-Khatib, the tongue of al-Din Abi Abdullah Muhammad bin Abdullah: The works of A'alam of the people of Bay'a before the dream of the Kings of Islam and related speech, investigation: Sayyid kasrawi Hassan, house of scientific books, Vol.1 (Beirut, 2003).
5. Ibn Samak Al-Amili, Abu Al-Qasim Muhammad ibn Abi Al-Ala Muhammad: al-hawshiyya garments in the mention of the Marrakech News, investigation: Abdelkader boubaya, house of scientific books, Vol. 1 (Beirut,2010).
6. Ibn Abi Zara', Ali El Fassi: Al-Anis Al-Mutrib in the story of the Kings of Morocco and the history of the city of Fez, Dar Al-Mansour for printing and paper, (Rabat, 1972).

---

[48] ابن سماك: الحلل الموشية، ص164 – 165.

[49] ابن خلكان: وفيات الاعيان، 4 / 116 – 117؛ الصلابي: تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، ص216 – 218.

[50] ابن خلكان: وفيات الأعيان، 3 / 423؛ الصلابي: تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، ص218 – 221.

[51] ابن سماك: الحلل الموشية، ص213.

7. Ibn Athari, Ahmed ibn Muhammad al-Marrakshi: Al-Bayan Al-Mugarab in the news of Andalus and Morocco, investigation: Ihsan Abbas, Vol. 3 (Beirut, 1983).
8. Salem, Mr. Abdelaziz: The great Morocco, the house of the Arab renaissance (Beirut, 1981).
9. Ibn Khaldun, Abdul Rahman Bin Muhammad: The book of lessons and the diwan of Mubtada'a & Al-Khabar in the days of the Arabs, the Ajam, the Berbers and those of their contemporaries with the greatest authority, Al-Alami foundation for publications (Beirut, 1971).
10. Bonar, Rabeh: The Arab Maghreb, its history and culture, Dar Al-Huda Vol.3 (Algeria, d. t).
11. Mo'ness, Hussein: Milestones of the history of Morocco and Al-Andalus, Family Library, Vol.2(Cairo, 2004).
12. Ibn khalkan, Abu al-Abbas Ahmad ibn Muhammad: The deaths of Al-A'ayan and the news of Abna'a Al-Zaman, an investigation: Yusuf Ali al-Tawil and Maryam Qasim al-Tawil, House of scientific books, Vol.1 (Beirut, 1998).
13. Nasrallah, Saadoun Abbas: Al-Murabiteen state in Morocco and Al-Andalus during the reign of Yusuf ibn Tashfin, Arab renaissance house, Vol.1(Beirut, 1985).
14. Salabi, Ali Mohammed: The state of Al-Murabiteen , Al-Iman library, Vol. 1 (Mansoura, d.t).
15. Provencal, Levi: Islam in Morocco, the House of the renaissance of Egypt, (Cairo, 1956).
16. Al-Ghazali, Abu Hamid Muhammad ibn Muhammad al-Tusi: The revival of the Sciences of Religion, Dar Al-marefa (Beirut, d.t).
17. Salabi, Ali Mohammed: The history of the state of Al-Murabiteen & Al-Muwahideen, Dar Al-marefa, Vol.4 (Beirut ,2011).